مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

تلاحم البناء اللغوي في سورة يوسف

جوهر محمد داود
باحث إماراتي

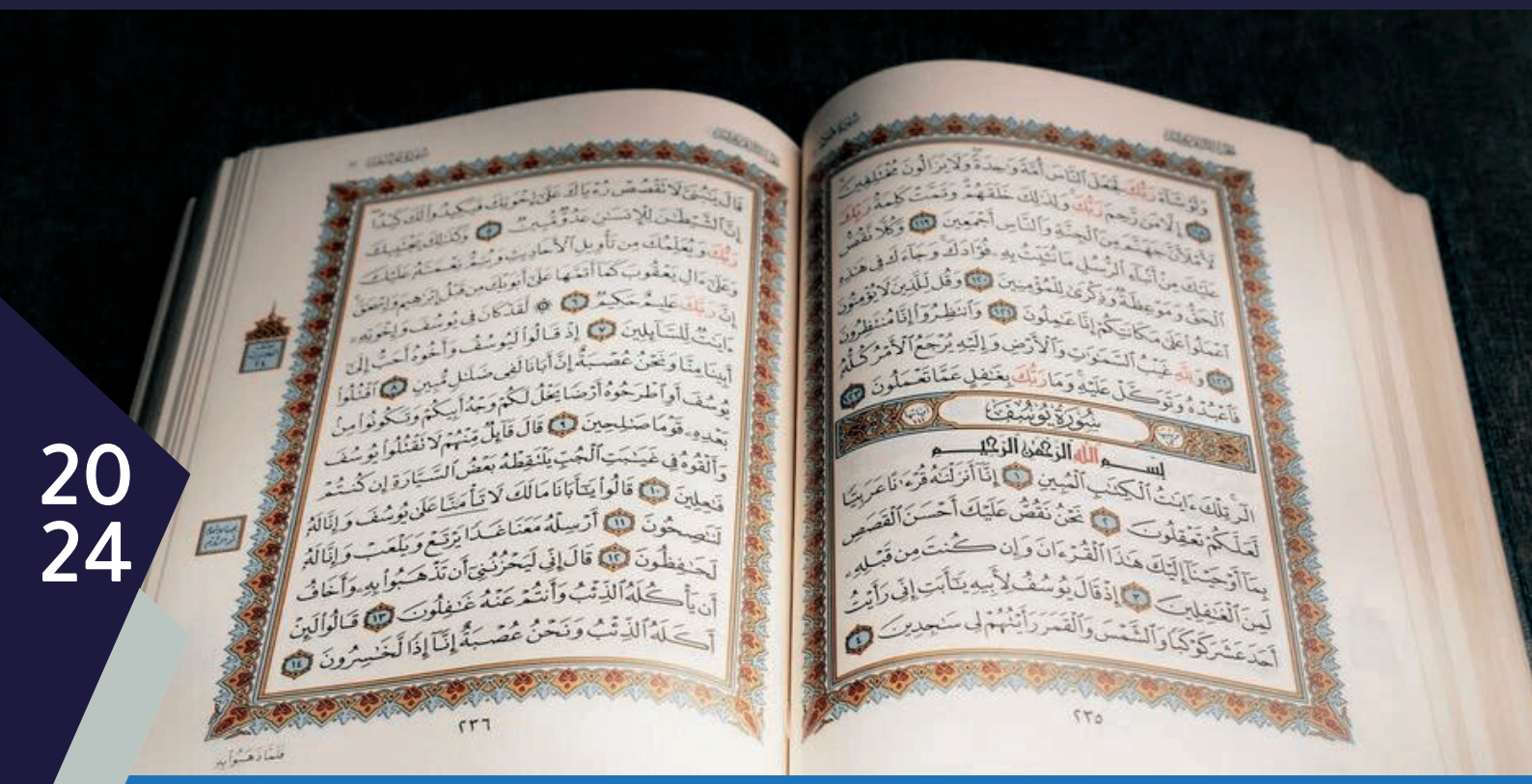

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 05 شتنبر 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

تلاحم البناء اللغوي في سورة يوسف[1]

1 - مقتطف من كتاب نظم القرآن، جوهر محمد داود، مؤسسة مؤمنون بلاحدود للنشر والتوزيع.

تقديم

اخترنا دراسة سورة يوسف في أربعة أقسام؛ ففي القسم الأول نقدم ملخصًا للسورة بأقسامها الثلاثة: المقدمة، والقصة، والتعقيب؛ وذلك حتى يتمكن القارئ من متابعة مسار الحديث أثناء تحليل البناء اللغوي للسورة. وفي القسم الثاني نستعرض بإيجاز نظام الفاصلة في السورة. وفي القسم الثالث نقدم تحليلًا موجزاً للتقنيات السردية المستعملة في القصة. وفي القسم الرابع، وهو أهم هذه الأقسام، نحلل تلاحم البناء اللغوي في السورة على النحو الذي سلكناه في الفصول السابقة. ثم نختم الفصل بكلمة قصيرة.

ملخص السورة

تنقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: المقدمة، والقصة، والتعقيب. فالمقدمة قصيرة تقع في ثلاث آيات (1-3) وهي متصلة بموضوع السورة اتصالًا وثيقًا في لفظها وفي مضمونها. والقصة تقع في تسع وتسعين آية (4-101) وتكاد تستغرق السورة كلها. والتعقيب أطول من التقديم ويقع في تسع آيات (102-111)، وهو تعقيب مباشر على القصة يربطها بالواقع المكي الذي نزلت فيه وفيه ألفاظٌ وتراكيبُ متفردةٌ منتزعةٌ من صميم السورة.

التقديم

تفتتح السورة بآيتين (1-2) فيهما ثناء على القرآن بأنه كتاب مبين، وأنه قرآن عربي أنزله الله لقوم يعقلون. يلي ذلك مباشرة تقديمٌ للقصة بوصفها أحسن القصص وبوصفها جزءًا من القرآن الذي يوحي به الله إلى نبيه محمد ﷺ ولم يكن له به علم من قبل.

القصة

يرى يوسف في منامه أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، يراهم له ساجدين. فيقص رؤياه على أبيه الذي يدرك مغزاها، ويعلَم منها أن الله يجتبيه ويعلِّمه من تأويل الأحاديث، ويحذره أن يقصها على إخوته فيكيدوا له كيدًا. لكن ذلك لا يمنع الإخوة من الكيد له. فإيثار أبيهم ليوسف عليهم يوغر صدورهم، ويفعل الحسد في قلوبهم فعله، فيقررون التخلص منه بإلقائه في الجب، حتى ينفردوا بأبيهم من دونه. ولتنفيذ خطتهم يقنعون أباهم أن يرسل معهم يوسف في رحلة ترفيهية، فيوافق على طلبهم كارهًا. وهناك يُلْقُونه في الجب، ويرجعون بالليل إلى أبيهم يبكون، ويقولون إن الذئب أكله وفي أيديهم قميصه ملطخًا بالدم. فلا تنطلي الكذبة على أبيهم، ويتلقى الفاجعة معتصمًا بالصبر.

ثم تمر قافلة، وتلتقط يوسف من الجب، وتبيعه في مصر لبيت يحتفي به ويكرم مثواه. في ذلك البيت يشب يوسف ويبلغ أشده، فيتعرض لمحنة الإغواء من سيدة البيت، ومن نساء الطبقة العليا في مصر، فيعتصم بالله وينجو من المحنة. ومع ذلك يُلْقَى به في السجن. وهناك يلتقي بسجينين يفسر لهما رؤياهما بأن أحدهما (الساقي) ينجو والآخر (الخبَّاز) يُصلب. فيوصي الساقِيَ أن يَذْكُرَهُ عند سيده فينسى ذكره، ويبقى يوسف في السجن بضع سنين، ثم يرى الملك في منامه سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سبعٌ عجافٌ، وسبعَ سنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابسات. فيعجز الملأ حول الملك عن تأويل هذه الرؤيا. وهنا يتذكر ساقي الملك يوسفَ، ويرجع إليه ليؤوِّلَ له رؤيا الملك. فيفسر يوسف تلك الرؤيا بأن مصر مقبلة على سبع سنواتٍ من الرخاء، يعقبهنَّ سبعٌ شداد، ثم يليهنَّ عام من الرخاء. كما يقترح خطة للتعامل مع تلك السنين. فَيُسَرُّ الملكُ بالتأويل، ويأمر بإخراج يوسف من السجن، وإتيانه به. لكن يوسف يأبى الخروج حتى تثبت براءته. فيجمع الملكُ النسوةَ ويشهدن ببراءة يوسف. ثم يَخرج يوسفُ من السجن، ويتبوأ منصبًا كبيرًا في مصر، ويتولى إدارة شؤونها الاقتصادية، بل يصبح هو الملِكَ الفعليَّ.

ثم تتحقق رؤيا الملك، وتضرب المجاعةُ مصرَ وما حولها. ويأتي إخوة يوسف من أرض كنعان إلى مصر بحثًا عن الطعام، فيعرفهم يوسف وهم له منكرون. وبعد تزويدهم بالغلال، يأمرهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم في رحلتهم القادمة، وإلا فلن يكون لهم عنده كيل. وينجح الإخوة في إقناع أبيهم أن يرسل معهم أخاهم في رحلة ثانية إلى مصر. وعند وصولهم، يستعمل يوسف حيلة يستبقي بها أخاه في مصر، فيعود الإخوة، إلا واحدًا منهم، إلى أرض كنعان بدون أخيهم. فتعظم الفاجعة على أبيهم بفقده ابنَهُ الثاني، ويفقد بصره. ولكنه لا يفقد صبره، فيرسل أبناءه مرةً أخرى إلى مصر ليبحثوا عن يوسف وأخيه. في هذه الرحلة الثالثة، يكشف يوسف عن نفسه لإخوته، فيعتذرون له عما كان منهم، فيصفح عنهم في مشهدٍ أخويٍّ عظيم التأثير. ثم يعطيهم قميصه ليذهبوا به إلى أبيه ويُلقوه على وجهه ليسترد بصره، ويأمرهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين. ويُلْقَى القميصُ على وجه أبيه فيرتد بصيرًا، وتنطلق الأسرة كلها في رحلة أخيرة إلى مصر حيث يلتئم شملهم جميعًا، فيرفع يوسف أبويه على العرش، ويخرون له سجدًا، وتتحقق الرؤيا التي رآها وهو صغير. ثم تختم القصة بهذا الابتهال العميق العظيم: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ [يوسف: 101]. وهكذا تبدأ القصة بالرؤيا وتنتهي بتأويلها.

التعقيب

تأتي خاتمة السورة تعقيبًا مباشرًا على قصة يوسف للتأكيد على أنها من أنباء الغيب الذي أوحى الله به إلى نبيه محمد ﷺ إذْ إنه لم يكن مع الإخوة وهم يمكرون بأخيهم يوسف، وهو تعقيب يشبه الافتتاح، ثم يخصص الجزء الباقي من التعقيب (103-111) لوضع القصة في سياقها المكي، ولمواساة النبي ﷺ بأنه إن يُعْرِضْ عنه قومه فقد أعرض الذين من قبلهم حتى استيأس رسلهم ثم جاءهم نصر الله الذي نجَّى المؤمنين وأهلك المجرمين، وتُختم السورة بلفت النظر إلى أن في قصص المرسلين عبرة لأولى الألباب.

نظام الفاصلة في سورة يوسف

تشتمل سورة يوسف على مائة وإحدى عشرة آية. وتشيع فيها فاصلة القرآن الكبرى، وهي الواو والنون (أُون)، والياء والنون (إين)، والياء والميم (إيم). وهذه الفواصل تمثل 61% من فواصل القرآن، كما مرَّ بنا من قبل. ففي سورة يوسف، تُختم مائة وسبع آيات بإحدى هذه الفواصل الثلاث: خمسٌ وأربعون آية تُختم بفاصلة الواو والنون، وسبع وأربعون آية بفاصلة الياء والنون، وخمس عشرة آية بفاصلة الياء والميم. والآيات الأربع الباقية تختم بفاصلة الياء والراء، والياء واللام، والألف والنون. وحروف الروي في السورة كلها أربعة هي النون، والميم، واللام، والراء، تجعهما عبارة: لم نر.

وأكثر هذه الحروف شيوعًا في السورة هو حرف النون الذي تختم به اثنتان وتسعون آية، وهو أكثر حروف الروي إطرابًا للأذن، وهو بشيوعه هذا الكبير يعطي السورة لونًا إيقاعيًّا خاصًّا يتناسب مع قصة يوسف التي هي أحسن القصص. ومما يلفت النظر، أن اللام والراء لا تقعان كرويٍّ إلا في ثلاث آيات، في قوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ**

﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: 65]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66]، وقوله تعالى: ﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]. وكأن هذه الندرة إشارة إلى الحروف المقطعة «الر» التي تبدأ بها السورة.

التقنيات السردية

أولًا – السرد والحوار والتقرير: تمتزج هذه التقنيات الثلاث في سورة يوسف، وتتداخل فيها من أولها إلى آخرها. ولكل واحدة منها أدوات تخصها. فأما السرد، فمن أهم أدواته في قصة يوسف الأداة الظرفية «لَمَّا» التي تتكرر فيها ثلاث عشرة مرة مسبوقةً بالفاء ﴿فَلَمَّا﴾، وست مرات مسبوقةً بالواو ﴿وَلَمَّا﴾. وهذه الأداة مهمة لتحريك الأحداث، والانتقال بالقصة من طور إلى آخر، وتكثيف العقدة ثم حلها في النهاية. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: 15]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: 22]. ومن أدوات السرد كذلك، والتي تفيد الانتقال من مكانٍ إلى آخر، الفعل «جاء» الذي يتكرر في السورة تسع مرات، ولكن يستعمل للسرد في ستة مواضع. ومثال ذلك قولُه تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: 16]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: 58]. وأمَّا «إذْ» فلا تستعمل إلا مرتين عند بداية القصة.

وأما الحوار فأهم أدواته فعل «القول» الذي لا يستغني عنه أي نصٍّ حواريّ، والذي يتيح إجراء الكلام على ألسنة الأبطال في القصة، والذي يتكرر في القصة أكثر من سبعين مرة، ويختفى مع نهايتها، ثم يخلو منه التعقيب عليها. مثال ذلك عبارة ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ التي تتكرر في القصة خمس مرات، والتي يتكلم فيها الإخوة بصوت واحد، وهم دائمًا يتكلمون بصوت واحد إلا في موضعين.[1] وفي القصة بضعة عشر شخصًا يتكلمون: منهم يعقوب، ويوسف - عليهما السلام - والإخوة، وامرأة العزيز (وهؤلاء هم الأبطال الرئيسيون في القصة)، والعزيز، والشاهد، والنسوة، والسَّجينَانِ (الساقي والخبَّازُ)، وغيرهم. والحوار أكثره يجري على ألسنة الأبطال الرئيسيين، كما سنرى أثناء تحليلنا لتلاحم البناء اللغوي للقصة. وأما التقرير، فأبرزُ أدواته عبارةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التي تتكرر في القصة أربع مرات، وعبارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التي تتكرر ثلاث مرات. مثال ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: 21، 56]. وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: 21، 56]. وعادةً يأتي مثل هذا التقرير تعقيبًا على نهاية طَورٍ من القصة، وإيذانًا ببداية طَورٍ جديد.

ثانيًا – الاقتصاد في السرد: إنّ أبرز سمة في طريقة عرض القرآن لقصة يوسف هي الاقتصاد في السرد، وهي سمة تجعل أحداث القصة تتلاحق بخطوات متسارعة. فقد يطوي السياق مشهدًا بكامله، ويترك فجوة بين الْمَشاهد يفهمها القارئ ويملؤها بخياله. وفي ترك هذه الفجوات، وإدراك القارئ لها، وملئه إياها بخياله من المتعة ما فيه؛ لأنه يدمج القارئ في تطور القصة، ويتيح له أن يتفاعل مع أحداثها تفاعلًا حيًّا مباشرًا. والأمثلة على هذا كثيرة جدًّا، لا يتسع المقام لسردها هنا، فنكتفي بمثالٍ واحدٍ يدل على غيره. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ

1 وهما قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: 10]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف: 10].

ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 50-51]. في الآية الأولى يطلب يوسف أن يرجع الرسول إلى الملك الذي أرسله، ويسأله أن يحقق في أمر النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن؛ وذلك حتى تَثْبُتَ براءته قبل خروجه من السجن، فيكون سجله ناصعًا لا مغمز فيه لغامز.

إن الترتيب العادي للأحداث بعد هذا الحوار بين يوسف وبين الرسول هو أن يقال إن الرسول رجع إلى الملك، وأخبره بجواب يوسف، وإن الملك بدأ يتحرى عن قصة تقطيع الأيدي، ومتى وقعت، وَمَن أولئك النسوة، ثم تبين له بعد التحري أنهن هن اللائي راودْنَ يوسف عن نفسه. وبعد هذا التحري المفصَّل جمَعَهُنَّ في حضرته للتحقيق العلنيِّ معهُنَّ، حتى تَثْبُتَ براءةُ يوسفَ بصفة رسمية وعلنية، وتنقطع الألسنة من لَوْكها في المستقبل. فقد طوى السياقُ كلَّ هذا الكلام، وبدأ بقوله تعالى: ﴿**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ**﴾. ومع أنه لم يَجْرِ ذكرٌ للملك في الآية، فإننا نعلم أن القائل في ﴿**قَالَ**﴾ هو الملك. ونفهم أنَّ مشاهد كثيرة طويت من الصيغة التقريرية التي بدأ بها الملك كلامَه. فقد قال: ﴿**مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ**﴾. فهو يُدينُهُنَّ من خلال هذا السؤال إدانة مباشرة، ولا يحقق معهن تحقيقًا أوَّليًّا. ولو كان تحقيقًا أوَّليًّا لقال: «ما خطبُكنَّ؟ هل راودتُّنَّ يوسف عن نفسه؟» إن هذا الطي الفني الجريء للمَشاهد، بهذه الرشاقة الأنيقة في التعبير، وهذا الاقتصاد المستفز للخيال، دون أدنى لبس في المدلول، لا يقع إلا في كتابٍ كالقرآن العظيم.[2]

ثالثًا – الكشف المتدرج عن المعاني والأحداث: ومن السمات البارزة في القصة والمطردة في مشاهدها التدرج في الكشف عن المعاني والأحداث؛ ذلك أن النظم القرآني لا يكشف عن المعاني والأحداث دفعة واحدة وإنما يستأني بها، فيميط اللثام عنها خطوة بعد خطوة، وحدثًا بعد حدث. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ [يوسف: 4]. في هذه الآية يقول يوسف إنه رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، رآهم له ساجدين. ويكرر الفعل «رَأَى» مرتين. لا نفهم من هذه الآية وحدها ما إذا كان الذي رآه يوسف شيئًا في اليقظة أم في المنام. فالآية تحتمل أن يكون يوسف رأى ما رأى ببصره في حالة اليقظة، لا في المنام، بل إن الرؤية بالبصر تبدو هي الأَوْلى لأنه ليس ثمة في الآية ما يشير إلى أن يوسف كان يقص على أبيه ما رآه في النوم. إننا لا نفهم هذا إلا من الآية التي بعدها: ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يوسف: 5]. من هذا الرد، من قول يعقوب: ﴿**لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ**﴾، نفهم أنها رؤيا في المنام، لا رؤية في اليقظة. بهذا التدرج تنكشف لنا حقيقة الرؤيا.

---

2 ومما يؤسف له أن المفسرين يتتبعون مثل هذا الأسلوب الذي يُشرك القارئ في القصة، ويضعه في قلب الحدث من خلال استثارة خياله لتمَلِّي المشاهد المحذوفة، ثم يجتهدون في إفساده ما استطاعوا في كل مواطنه بإدخال كلام من عندهم يفسر المحذوف، يقول ابن عطية: «المعنى: فجمع الملكُ النسوةَ وامرأةَ العزيز، وقال لهن: ﴿**مَا خَطْبُكُنَّ**﴾ الآية.» انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 1000. ولا يسترعي انتباهه من جمال هذا التعبير إلا هذا القدر من المحذوف، ولا يعنيه فيه إلا أن يضيف إلى التعبير ما يحسبه شرحًا له، دون أن يقدّر أن هذه الإضافة متروكة لخيال القارئ حتى يكملها بما هو أغنى منها وأوسع وأخصب.

لكن الأعمق من هذا الكشف المتدرج في هذه الحالة على مستوى السياق الواحد والآيات المتجاورة، هو أن يوسف يقول: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، وهو يتحدث عن غير العاقلين. إن التعبير المعتاد لغير العقلاء في مثل هذا المقام هو: «رأيتها» بهاء التأنيث، وليس بضمير «هم» الذي ينوب عن العقلاء. إن قيمة هذا الضمير تكمن في أنه يلوِّح لنا من بعيد بنهاية القصة، وينبهنا إلى أن الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ترمز إلى شيء آخر غير الأجرام الكونية المعروفة، ترمز إلى جماعة من العقلاء، سيقع منهم السجود. وهذا ما سيحدث بالفعل ولكنه لن ينكشف لنا إلا عند نهاية القصة. ووظيفة هذه التقنية السردية هي التشويق وإثارة الفضول. وفوق ذلك، فإن التعبير بضمير الجماعة «هم» يهيئ لقدوم فاصلة ﴿سَاجِدِينَ﴾ التي تُحَقِّقُ الغرضَ الإيقاعيَّ الذي هو تحقيق التناغم مع النظام العام لفاصلة السورة، والغرضَ الفنيَّ الذي هو الإيماء إلى مآل القصة. ولو قيل «رأيتها» لكانت الفاصلة «ساجدة»، ولَمَا تحقَّقَ إذَن الغرضُ الإيقاعيُّ ولا الغرضُ الفني.

ومثال آخر على الكشف المتدرج قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: 45]. هذه الآية تأتي بعد ما قص الملك رؤياه، واستفتى الملأ في تأويلها فلم يعرفوا مغزاها. والمتحدث فيها هو الساقي. نحن نفاجأ بصوته هنا، ولم يسبق له ذكر في السياق، وكان آخر عهدنا به في السجن مع يوسف عند تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه. ولم نعلم من ذلك التأويل أنه نجا بالفعل. الآن فقط، وبعد مضي بضع سنين، نعرف أنه نجا، بعد ما تَرَكَنَا سياق التأويل في السجن مُعَلَّقين لا نعرف مصيره، ولا مصير صاحبه الخبَّاز. فالسياق هنا لا يكشف لنا عن نجاته (وهلاك صاحبه ضِمْنًا) فحسب، وإنما يكشف لنا كذلك عن وجوده مع الحاضرين في حضرة الملك، ومنهم الملأ الذين لم نعرف بوجودهم أيضًا إلا عند ما استفتاهم الملكُ في رؤياه. ويشتد وقْع المفاجأة علينا وعلى الملأ أن ينبري الساقي، وهو أقل الحاضرين شأنًا، ليأتيهم بتأويل الرؤيا التي عجز عن فهمها علية القوم. وهكذا تتدرج بنا القصة خطوة بعد خطوة، وحدثًا بعد حدث في الكشف عن الأشخاص والأحداث، وتمضي حافلةً بعناصر التشويق والإثارة في مشاهدها كلها، مما لا يتسع المقام لتفصيله هنا. نكتفي بهذه التقنيات السردية؛ إذْ إن تحليل البنية الفنية للقصّة مبحث مستقل يقع خارج نطاق هذه الدراسة.

تلاحم البناء اللغوي في سورة يوسف

إنّ تلاحم البناء اللغوي في سورة يوسف هو الذي من أجله أنشئ هذا الفصل. ونتناول فيه أمثلة من التلاحم اللغوي على النحو الذي صنعنا في الفصول السابقة، لنبين أن أجزاء هذه القصة الخالدة متماسكة في بنائها اللغوي تماسكها في حبكتها الفنية الفريدة. إن اجتماع هاتين السمتين، سمة التماسك اللغوي وسمة تماسك الحبكة الفنية، يزيد هذه القصة جمالًا فوق جمال، وإعجازًا فوق إعجاز. فإلى الأمثلة:

المثال الأول: ﴿إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا...﴾

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: 5]. وقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا

﴿كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]. فالآية الأولى تقع في أول القصة، في أرض كنعان، بعد ما قص يوسف رؤياه على أبيه، وهو بعد غلام صغير. والثانية تقع في مصر، بعد سنين طويلة لا يعلم عددها إلا الله، وبعد أن مَرَّ يوسف بأطوار كثيرة في حياته الحافلة، من الجب إلى القصر، ثم إلى السجن، ثم إلى الْمُلك. ولكن يجمع بينهما تركيب لغوي متفرد، وهو قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾. ويتمثل هذا التفرد أولًا في أن كلمة الكيد التي تتكرر في القرآن خمسًا وثلاثين مرة بصيَغِها المختلفة، تتكرر في سورة يوسف وحدها سبع مرات؛ أي 20% من جملة ورودها في القرآن، مما يجعل الكيد سمةً بارزةً في قصة يوسف. فقد تعرَّض لكيد إخوته، وكيد امرأة العزيز، وكيد النسوة.

وثانيًا أنَّ فعل الكيد يأتي عادةً في القرآن متعدِّيًا بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: 55]، إلا أنه في سورة يوسف يأتي متعدِّيًا بلام الجر في الموضعين. ففي الآية الأولى، قال تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، فعدَّى الفعل بلام الجر للتأكيد أن الكيد خاصٌّ بيوسف، وموجَّهٌ إليه، ثم أكَّد الفعلَ بالمصدر لإبراز هذا التخصيص. وفي ذكر الكيد في هذه الآية، وتخصيصه بلام الجر، وتأكيده بالمصدر إيذانٌ ببداية الصراع في القصة، وتحديدٌ للأطراف المشتركة فيه (يوسف، والإخوة، والشيطان)، وتلويحٌ بشدته وخطورته. وفي الآية الثانية، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، فعدَّى الفعل بلام الجرِّ أيضًا للتأكيد على أن هذا التدبير الإلهي مما اختص الله به يوسفَ ﷺ، ومن رعايته له، ومن رحمته به بعد ما مرَّ به من آلام الغربة ومَضَض الفراق. **وهذا الفعل لا يتعدى بحرف جرٍّ في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين من سورة يوسف**، فضلًا على أن حرف الجرِّ في الحالتين يأتي متصلًا بيوسف.

وهكذا تُحَقِّقُ هذه التعدية بلام الجر لفعلٍ هو في الأصل متعدٍّ بنفسه تلاحمًا لغويًّا فريدًا بين الآيتين، كما تحقق تلاقيًا غرضيًّا بينهما. والملحوظ في هذا التلاقي الغرضي، أن كيد الإخوة ليوسف يفشل، بل ينقلب من الكيد السيئ إلى الكيد المحمود، فيكون سببًا في دفعه إلى المستقبل العظيم الذي أعدَّه الله له. والواقع أن لام الجر التي تعدَّى بها فعل الكيد توحي بهذا الانقلاب إيحاءً خفيًّا. إن تعدية الفعل باللام بدلًا من تعديته بنفسه كما هو المعتاد توحي بأن الكيد فعلًا ليوسف، لمصلحته لا ضده. ولا يصرف هذا المعنى عن الخاطر إلا تأكيد الفعل بمصدره: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾. والدليل على هذا أن الآية الثانية تصرِّح بأن الكيد فعلًا ليوسف: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وأنه لطفٌ هيَّأه اللهُ له للَمِّ شمله بأخيه وتعويضه عن سنوات الفراق. وبهذا لا تكون التعدية الأُولى بلام الجر تمهيدًا لظهور الثانية فحسب، وإنما تكون كذلك تمهيدًا لما تؤول إليه الأحداث في نهاية المطاف. وفي مثل هذا يتجلى الإعجاز في أروع صوره، حيث تلتقي التراكيب اللغوية بالأغراض القصصية هذا الالتقاء اللطيف الخفي المدهش، سواء في اختيار الله سبحانه لكلمات كتابه، أو في تدبيره لمجاري الأمور في قصة يوسف.

* * *

المثال الثاني: ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ...﴾

قال تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 9]. وقال تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: 93]. تقع هاتان الآيتان في موقعين متباعدين في الزمان وفي المكان، ولكنهما تشتركان في كلمتين لا تجتمعان في القرآن كله إلا فيهما، وهما «الوجه» و«الأب». جاء في الأولى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، وفي الثانية: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾. فكلمة «وجْه» تتكرر - إفرادًا وجمعًا - اثنتين وسبعين مرة في القرآن، وكلمة «أب» تتكرر - إفرادًا وتثنيةً وجمعًا - مائةً وسبع عشرة مرة. ولكنهما مع هذا الشيوع الكبير، لا تجتمعان في آية واحدة إلا في هذين الموضعين المتباعدين والمشهدين المتباينين من سورة يوسف.

فالآية الأولى جزء من أول حوار يدور بين إخوة يوسف، وهم يتآمرون في أرض كنعان للتخلص من يوسف بقتله أو طرحه في أرض بعيدة. وبذلك يخلو لهم وجه أبيهم، فينصرف إليهم بكليته ولا يقاسمهم فيه أخوهم الصغير الأثير. والآية الثانية جزء من حوار يدور بين يوسف وإخوته وهم في مصر، بعد فترة طويلة من الحوار الأول، وقد كشف لهم يوسف عن نفسه، وهو الآن يأمرهم أن يذهبوا بقميصه فيُلْقُوه على وجه أبيه كي يسترد بصره، ثم يأمرهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين.

نرى في الآيتين مثالًا من أمثلة الاقتباس المعجز البديع الذي يحقق التلاحم اللفظي والغرضي معًا. ففي الحوار الأول يقول الإخوة: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، فيضيفون الأب إلى أنفسهم، كأنه أبوهم وحدهم، وكأنهم بهذه الإضافة اللفظية يريدون إقصاء يوسف حتى في التعبير اللغوي قبل إقصائه بشخصه. ومن المفارقات العجيبة في هذا التعبير أن أباهم يفقد بصره من شدة الحزن على يوسف فلا يخلو للإخوة وجهه كما أرادوا، ولا يستطيع النظر إليهم، فكأن الوجه الوحيد الذي يستحق النظر إليه هو وجه يوسف.[3] وفي الحوار الثاني يقول يوسف: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾، فيضيف الأب إلى نفسه، ولا يقول: «فألْقُوه على وجه أبيكم»، كأنما هو ردٌّ على إخوته في الحوار الأول،[4] إلا أن إضافة الإخوة تذهب ببصر أبيهم، بينما إضافة يوسف تعيد له بصره. وهكذا نرى أن الحوار الأول لم يكن في الحقيقة إلا إيذانًا بوقوع الحوار الثاني الذي كان غيبًا بعيدًا سيقع بعد سنين طويلة. ولا يقع مثل هذا التناسق المتفرد في البناء اللفظي وفي التماسك المعنوي إلا في القرآن الذي ﴿أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: 6].

* * *

3 Mustansir Mir. Cf. Mustansir Mir, "Irony in the Qur'an: A Study of the Story of Joseph," in *Literary Structures of Religious Meaning in the Qur'an*, ed. Issa J. Boullata (New York: Routledge, 2000), 180

4 والمفارقة الأخرى هي أن قميص يوسف هو الذي يفجع أباه في بداية القصة، وقميص يوسف هو الذي يعيد إليه بصره في نهاية القصة. والقميص لا يُذكر في القرآن إلا في سورة يوسف، ورمزيته لا تخفى في جميع المواضع التي يُذكر فيها.

المثال الثالث: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

قال تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 12]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 63]. نحن في هاتين الآيتين أمام مشهدين مختلفين في زمانين متباعدين، ولكن تجمع بينهما عبارات لا تجتمع في القرآن كله إلا فيهما. فعبارة ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لا تقع في القرآن كله إلا ثلاث مرات: مرتين في سورة يوسف، ومرة ثالثة في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. ولما كانت هذه العبارة مشتركة بين يوسف والحجر، فقد فرَّق النظم القرآني بينهما بعبارة ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ وعبارة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ اللتين لا تقعان إلا في يوسف. والفرق الآخر هو أن آية الحجر لا تأتي في سياق قصة وحوار، كما هو الشأن في آيتي يوسف.

وفي المشهدين، يقع الحوار بين الإخوة وبين أبيهم. ففي المشهد الأول، يحاول الإخوة إقناع أبيهم أن يرسل يوسف معهم ليرتع ويلعب، ويبذلون له الوعد المؤكد بحفظه وحمايته. ونحن نعلم أنهم ليسوا صادقين في وعدهم هذا، وأنهم يضمرون عكس ما يقولون. وفي المشهد الثاني، يحاول الإخوة إقناع أبيهم أن يرسل معهم أخاهم بنيامين إلى مصر كي يمتاروا، فيبذلون له نفس الوعد المؤكد باستعمال الألفاظ ذاتها. إنهم في هذه المرة صادقون في وعدهم، وكذلك في طلبهم. إنه لا بُدَّ لهم من اصطحاب أخيهم إلى مصر، وإلا فهو الجوع. فقد منع يوسف منهم الكيل، واشترط عليهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم. ولكن الوالد المفجوع الذي يسمع ذات الألفاظ التي سمعها من قبل، والتي لا يزال رنينها في أذنه، وآلامها في نفسه، يأبى أن يصدقهم هذه المرة، ولا يرسل معهم ابنه الثاني إلا بعد أن يأخذ عليهم موثقًا من الله.

إنّ يوسف هنا يضع إخوته أمام اختبار عسير، تمهيدًا لتطهير قلوبهم مما كان فيها. يضعهم في موقف مناقض للموقف الذي كان منهم فيما مضى ليلقِّنهم درسًا في قول الصدق في كل الأحوال. إن الذي يكذب ليحتال على الناس، وهو غير مضطر، لا يقبل الناس كلامه وإن كان صادقًا، وهو في حالة الاضطرار. وهو درس كذلك يلقنه القرآن للناس جميعًا في كل زمان ومكان من خلال هذه القصة الحقيقية الفريدة، لا من خلال قصة خيالية. وهكذا نرى مرة أخرى أن الحوار الأول لم يكن إلا مقدمة للحوار الثاني، وأن الحيلة التي يستعملها الإخوة للكيد بأخيهم يوسف تقابلها حيلة أخرى أقوى وأنجع.

* * *

المثال الرابع: ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: 14]. وقال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: 79]. هذان مشهدان متباعدان في الزمان والمكان، ولكن يشتركان في تركيب لغوي متفرد لا يقع مثله في القرآن كله إلا فيهما. وهذا التركيب هو عبارة «إنَّا

إذًا» التي تتكرر في القرآن خمس مرات: مرتين في يوسف، وثالثةً ورابعةً في آيتين متتاليتين في المائدة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: 106]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 106]، ومرةً خامسةً في القمر، في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: 24]، غير أنَّ الذي يميز التركيب الذي في سورة يوسف هو أن عبارة ﴿إِنَّا إِذًا﴾ تأتي متبوعةً مباشرةً بلام التوكيد المزحلقة المتصلة بالاسم المجرد، في قوله: ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾، وقوله: ﴿لَّظَالِمُونَ﴾. أما في السور الأخرى، فإن اللام المزحلقة لا تباشر الاسم المجرد، وإنما تأتي متصلة بحرف جر. هذا من الناحية اللغوية.

أما من ناحية المضمون، فإن الآية الأُولى جزء من الحوار الذي يحاول فيه الإخوة أن يبدّدوا مخاوف أبيهم على يوسف من الذئب، ويطمئنوه على أنَّ من كان في مثل قوتهم وكثرتهم قادر على حمايته، وأنه لا خير فيهم إن حدث له مكروه. ونلاحظ هنا اعتدادهم بقوتهم وكثرتهم من خلال حديثهم بصوت واحد، وقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾. وأما الآية الثانية، فجزء من الحوار الذي يأبى فيه يوسف أن يَقْبَلَ عَرْضَ إخوته أن يأخذ أحدًا منهم مكان أخيه بنيامين، ويؤكد لهم أنه لا يأخذ إلا من وُجد متاعُ الملك عندَه، وأنه إن فعل غير ذلك فلا يكون عادلًا في حكمه. والعلاقة الغرضية بين هذيْنِ المشهدين تتحقق من ناحيتين: الأولى أننا نعلم أنَّ كلا الطرفين لا يعني ما يقول، وأن كلًّا منهما يستعمل الحيلة لبلوغ غاية معينة. فالإخوة لا يريدون في الحقيقة حماية يوسف، وإنما يريدون إهلاكه. وكذلك يوسف لا يريد في الحقيقة أن يعاقب أخاه لأنه لم يسرق أصلًا، وإنما يريد استبقاءه. والأخرى أننا نرى الإخوة يعتدُّون بقوتهم وكثرتهم، ويتكلمون بصوتٍ واحدٍ ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ لإقناعه بقدرتهم على حماية يوسف. وفي المقابل نرى يوسف يستعمل في خطابه إليهم نون العظمة ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ - وهذا الموضع الوحيد الذي يشير فيه إلى نفسه بنون العظمة في السورة كلها - لأنه يتكلم كملك ذي سلطة عليا وكلمة نافذة ليلقِّنهم درسًا آخر. فقد استخدم إخوانه من قبلُ قوتهم للشر، أما هو فيستخدم اليوم قوته للخير. بهذا التناسق المدهش يتلاحم المشهدان في اللفظ وفي المعنى.

* * *

المثال الخامس: ﴿عِندَ مَتَاعِنَا...﴾

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: 17]. في هذه الآية، نجد الإخوة أمام أبيهم وهم يحاولون أن يبرروا جريمتهم لأبيهم، فيختلقون حيلة لإقناعه، ويقولون إنهم ذهبوا يستبقون، وتركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب. ولأنهم يدركون أن حيلتهم مختلقة على عجل، ومأخوذة من هواجس أبيهم نفسه، يسابقون خاطره، ويقولون لن تؤمن لنا ولو كنا صادقين، في محاولة يائسة للتغطية على كذبهم. من هذا المشهد الأليم، مشهد فجيعة يعقوب في ابنه يوسف في أرض كنعان، يقتبس النظم القرآني عبارة ﴿عِندَ مَتَاعِنَا﴾، ثم يحورها ويدخلها في آية جديدة، بعد أعوام مديدة، في أرض بعيدة، ليرسم منها مشهدًا جديدًا في نمطٍ من أنماطِ الاقتباس القرآني المعجز.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: 79]. فالسياق هنا يعيد تركيب العبارة وترتيبها لتلائم الموقف، فيقدِّم «المتاع» على الظرف مع الاحتفاظ له بالإضافة إلى ضمير المتكلمين (نا) -ولهذا سرٌّ سنعرفه بعد قليل- ثم يضيف الظرف إلى ضمير الغائب. نحن هنا أمام مشهدٍ مُقابِلٍ لِلَّذي كان منذ أعوام طويلة. إنَّ الإخوة الذين حاولوا أن يخدعوا أباهم منذ ذلك الزمن البعيد، يجدون أنفسهم اليوم في نفس الموقف الذي وضعوا فيه أباهم. فقد كذَبُوا على أبيهم بقصة المتاع لتبرير فعلهم الأثيم، واليوم يخدعهم يوسف بقصة المتاع نفْسِها لتنفيذ خطته النبيلة. إنه يلقنهم هنا درسًا آخر قاسيًا، وهو أنَّ الفعل الأثيم يرجع إليك ولو بعد حين، وتقف أمامه وجهًا لوجه، وتدفع ثمنه.

ولكن أين الإعجاز اللغوي في هذا الاقتباس؟ إنّ الإعجاز هنا يكمن في أنَّ كلمة «متاع» التي تتكرر في القرآن خمسًا وثلاثين مرة، لا ترِد في القرآن كله مضافةً إلى ضمير المتكلمين (نا) إلا في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾، في سورة يوسف.[5] كما أنها لا تأتي متصلة بضمير أصلًا إلا في سورة يوسف، ولا متصلةً بكلمة «عند» إلا في هاتين الآيتين.[6] بهذه الدقة المعجزة في اختيار الكلمات، وهذا التلاقي الباهر في اللفظ وفي المدلول، تصاغ آيات الكتاب العزيز، دون أن يكون هناك أثر للاقتباس من نصٍّ سابق، وكأنك ترى العبارة لأول مرة في الحالتين.

* * *

المثال السادس: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ...﴾

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: 17]. وقال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25]. هاتان الآيتان تقعان في مشهدين مختلفين، ومكانين متباعدين، ولكن يجمع بينهما الفعل «اسْتَبَقَ» الذي لا يتكرر في القرآن إلا خمس مرات، ولا يتكرر مرتين في سورة واحدة إلا في سورة يوسف،[7] في قوله تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾. ويرِد مرة واحدة في كلٍّ من البقرة، والمائدة، ويس. وهذا الفعل بندرته هذه، وبتكرره مرتين في هذه السورة يكتسب قوة الربط بين الآيتين.

ففي المشهد الأول يختلق الإخوة قصة الاستباق الذي شغلهم عن رعاية أخيهم الصغير يوسف، حتى يبرّروا عودتهم إلى البيت بدونه. فيوسف هنا هو الضحية، ضحية مؤامرة إخوته عليه. وفي المشهد الثاني، يستبق يوسف وامرأة العزيز الباب. فهو يجري أمامها وهي تلاحقه، فتقد قميصه، وهو الضحية هنا أيضًا،

5 وفيما عدا هذين الموضعين تأتي بصور متعددة، كأن تكون متبوعة بحرف جرّ، كقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: 36]، أو مضافة إلى كلمة، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14]، إلخ.

6 وكذلك لا تجتمع كلمة «متاع» بكلمة «عند» في آية واحدة في القرآن كله إلا في هذين الموضعين من سورة يوسف، وفي موضع آخر في آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14]، وهي ليست متصلة بها اتصالًا مباشرًا.

7 ويرد مرة في كلّ من البقرة [البقرة: 148]، والمائدة [المائدة: 48]، ويس [يس: 66].

ضحية مؤامرة امرأة العزيز عليه. إن ذكر الاستباق في أول القصة، في سياق المحنة الأُولى ليوسف، إيذانٌ بالمحنة الأخرى التي تنتظره، ولكننا لن نعلم هذا إلا حين تتقدم بنا الأحداث. وهذه من التقنيات السردية ذات الإيحاء الخفي التي تستعملها القصة لتنبيه القارئ إلى ما هو آت. والفعل «اسْتَبَقَ» بوروده النادر في القرآن يبقى في الذاكرة لفترة أطول من الكلمات المعتادة، ويسهل تذكره عند وروده للمرة الثانية.

* * *

المثال السابع: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ...﴾

قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 77]. تقع هاتان الآيتان في موقعين متباعدين، وتصوران مشهدين مختلفين في زمانين متباعدين، ولكن تنفردان بكلمات لا تجتمع في القرآن كله إلا فيهما. فعبارة «ما تَصِفُون» من العبارات النادرة في القرآن ولا ترد فيه إلا أربع مرات: مرتين في سورة يوسف، في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، ومرتين في الأنبياء.[8] ولكن هذه العبارة تنفرد في سورة يوسف لورودها مصحوبةً بكلمة «نَفْس» في الآيتين، في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، ولا نجد مثل ذلك في سورة الأنبياء. كما نجد لفظ الجلالة في آيتي يوسف، ولكن لا نجده في اللتين في الأنبياء. وبهذا يتحقق التلاحم اللغوي بين الآيتين.

وثمة تلاقٍ غَرَضِيٌّ كذلك بين الآتيين. فالآية الأُولى تصور مشهدًا من مشاهد الفاجعة التي أصيب بها يعقوب في ابنه يوسف. فهؤلاء بنوه يأتونه على قميص يوسف بدم كذب، بعد ما ألقَوْه في الجب، فلا يقتنع بما يقولون، ويدرك أن هذه كذبة أخرى ككذبة الاستباق، وأن وراء القميص أمرًا آخر: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، ولا يجد أمام هذه المصيبة إلا الاعتصام بالصبر والاستعانة بالله على ما يقولون: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. والآية الثانية، تصور مشهدًا مقابلًا للمشهد السابق. فهؤلاء إخوة يوسف في مصر يجدون أنفسهم أمام وضع محرج، وقد اتُّهم أخوهم بسرقة صواع الملك، ولا يعلمون أنها حيلة من يوسف لاستبقاء أخيه، فيثور فيهم حقدهم القديم على يوسف، فيسارعون في اتهامه هو وأخيه بالسرقة: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾. إنهم يكذبون هذه المرة على يوسف كما كذَبوا على أبيه من قبل، فيُسِرُّها يوسف في نفسه ولا يبديها لهم لأنه لم يكشف لهم بَعْدُ عن نفسه. في هذا الموقف، وأمام هذا الاتهام الكاذب، يستعير كلمات أبيه ويرددها في نفسه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. وهكذا يتلاحم المشهدان في اللفظ ويتقابلان في المدلول.

---

8 وهما قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 112].

المثال الثامن: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً...﴾

قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: 19]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 77]. تقع هاتان الآيتان في موقعين متباعدين في السورة، وتصوران مشهدين مختلفين في طورين متباينين من أطوار القصة، ولكن تجمعهما عبارةٌ لا ترد في القرآن كله إلا فيهما. غير أنها عبارةٌ تحتاج إلى شيءٍ من التأمل للكشف عن وجه تفَرُّدِها. إنَّ الفعل «أَسَرَّ» يتكرر في القرآن ثماني عشرة مرة، ولكنه لا يأتي في مواقعه كلها متصلًا بضميرٍ إلا في هاتين الآيتين، [9] في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾. أما في بقية المواقع فيأتي مجردًا من الضمير، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [يونس: 54]، وقوله تعالى: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: 52]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: 19]. بمثل هذا السبك المحكم الدقيق، تصاغ آيات القرآن لتحقق هذا التلاحم اللغوي الفريد بين آيتين متباعدتين في سورة واحدة.

فإلى جانب هذا التلاحم اللغوي، نجد كذلك تقابلًا في المدلول بينهما. ففي الآية الأُولى نرى القافلة تمرُّ بالجب الذي فيه يوسف، فيرسلون واردهم ليستقي لهم الماء، فيدلي دلوه، فيتعلق يوسف بالدلو ويخرج من الجب، فيصيح الوارد مستبشرًا: ﴿يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ!﴾. ثم يسارعون إلى إخفائه ليبيعوه بضاعةً فيما يبيعون من المتاع. إنَّ هذه القافلة تظهر مرتين في القصة في مشهدٍ قصيرٍ شديدِ القِصَر. تظهر مرة عند الجب لالتقاط يوسف منه، وأخرى في مصر عند بيعه في مصر، ثم تختفي إلى الأبد. هذا المشهد على قِصَرِه يمثِّل منعطفًا بالغ الأهمية في تطور القصة. فمن هذه النقطة يتحول مجراها، وتتسع رقعتها الجغرافية، وتنتقل أحداثها من أرض كنعان إلى أرض مصر، وينضم إلى مسرح الأحداث أبطال جدد. ومن هذه النقطة كذلك يفارق يوسف أهله ووطنه، وينتقل من الحرية إلى العبودية، ولا أدل على هذا الانتقال من إخفائه كبضاعة: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾. إنه الآن مجرد بضاعة، لا إنسان. والبضاعة كلمة تُهْدِيها القافلة إلى القصة، وتظهر فيها أربع مرات في مواقع لها دلالات رمزية عالية، ولا تظهر إلا في سورة يوسف. والحق أن هذه القافلة هي التي تطلق القصة في مسرحها الكوني الكبير، ذلك المسرح الذي يتعاقب عليه الأنبياء من أبناء يعقوب على امتداد التاريخ.

وفي الآية الثانية، وقد مرت بنا في الفقرة السابقة، يرى يوسفُ إخوته يتهمونه هو وأخاه بالسرقة، فلا يواجههم بكذبتهم، وإنما يُسِرُّها في نفسه لِيُنَفِّذَ خطةً ألهمه الله إيَّاها، وهي استبقاء أخيه في مصر. وهذا يتقابل مع إسرار القافلةِ يوسفَ بضاعةً لِيَنْفُذَ قَدَرُ الله الذي أراد ليوسف أن ينتقل إلى مصر، لتبدأ تلك القصة الكونية

9 ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: 26]. في هذه الآية يأتي المصدر متصلًا بضمير الغائبين، ونحن هنا إنما نتحدث عن الفعل.

الكبيرة، قصة الأنبياء من بني إسرائيل. وهكذا تلتقي الآيتان في الغرض، كما التحمتا من قبل في اللفظ، ويبرز لنا الدور العظيم الذي تلعبه القافلة على قِصَر المشهد الذي تظهر فيه.[10]

المثال التاسع: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ...﴾

المثال التاسع. قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: 23]. وقال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: 79]. تصور هاتان الآيتان مشهدين مختلفين في زمانين متباعدين، ولكن تنفردان بعبارة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ التي لا تظهر في القرآن كله إلا فيهما. ومع أن هذه العبارة لا ترد إلا في هذين الموضعين، فقد كُتب لها الشيوع والذيوع في اللغة كأنها من العبارات التي تتكرر كثيرًا في القرآن.

إنّ القائل لهذه العبارة في الآيتين هو يوسف ﷺ. ففي الآية الأولى يعتصم بالله ويعوذ به أن يرتكب إثمًا مع امرأة أكرمه زوجُها، وضمه إليه، وأحسن مثواه. فبالإضافة إلى ما رزقه الله من العفة، فإن يوسف هنا يستعمل العقل في إبائه لإغواء المرأة لما رزقه الله من العلم والحكمة. فلا يجوز عقلًا - كما لا يجوز دينًا - أن يستجيب لإغواء امرأةٍ هي زوج رجل أحسن إليه وأكرم مثواه.

وفي الآية الثانية يعوذ بالله كذلك أن يأخذ إلا من وُجد عنده متاع الملك، فلا يجوز عقلًا أن يؤخذ بريء بجريرة غيره، كما لا يجوز ذلك فيما حكم به الإخوةُ أنفُسُهم على أنفُسِهم. ولذلك تُختَمُ الأُولى بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، والثانية بقوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾. فهو في الحالتين يستعمل العلم والحكمة: في حالة الإغواء الذي يغيب فيه العقل والحكمة، وفي حالة الْمُلْك الذي يطغى فيه الجبروت على العقل والحكمة. وفي هذا تصديق لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: 22]. بهذا التوازن العجيب تتشابك الآيتان في التناظر اللفظي المتفرد وفي الإيحاء المعنوي العميق.

* * *

المثال العاشر: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ...﴾

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: 32]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: 61]. تقع هاتان الآيتان في موقعين متباعدين ولكن يجمع بينهما الفعل «رَاوَدَ» الذي لا يقع في القرآن إلا

10 وقد أخفق أحد المستشرقين في فهم هذا الدور الأساسي الذي تقوم به القافلة، فقال إن ثمة شخصيات ثانوية غامضة لا نعرف عنها شيئًا كالقافلة التي تنتشل يوسف من البئر ولا تظهر إلا في مشهد واحد. وكان يمكن الاستغناء عنها والتعبير عن المشهد بالبناء للمجهول: «وُجد يوسف في البئر، ثم جيء به إلى مصر، ثم بيع هناك.» وهذا النص الإنجليزي لكلامه: Joseph *was found* in the well, *brought* to Egypt and *sold* there.» [التوكيد في الأصل]. انظر: Jaakko Hämeen-Anttila, "We Will Tell You the Best of Stories: A Study on Surah XII," *Studia Orientalia* 67 (1991) , 17.

ثماني مرات، سبع منها في سورة يوسف، ومرة في سورة القمر، [11] مما يجعله من الخصائص اللغوية البارزة لطَوْرٍ مُهِمٍّ ومُثِيرٍ من أطوار القصة. ويجيء هذا الفعل في كل مواقعه في القرآن دالًّا على الإغراء الجنسي إلا في موضع واحد، وهو الآية الثانية التي يعِد فيها الإخوةُ يوسفَ أن يفعلوا ما يستطيعون لإقناع أبيهم أن يرسل معهم أخاهم بنيامين إلى مصر: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾. ولهذا السبب أهملنا المواقع الأخرى التي ترِد كلها في موضوع واحد، وهو محنة الإغراء التي تعرض لها يوسف.

وقد عبر السياق هنا عن مخادعة الأب لإقناعه بالمراودة. يقول الزمخشري في تفسير عبارة ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: «سنخادعه عنه، وسنجتهد ونحتال حتى ننتزعه من يده».[12] إن العدول عن لفظ «المخادعة» إلى المراودة يدل على إرادة التوحيد بين المشهدين بآصرة لغوية تتفرد أولًا في اختلاف معناها في المشهدين، وثانيًا في اجتماعها بكلمة «الفعل» في الآيتين، في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾. فهذه الكلمة لا تجتمع بكلمة «رَاوَدَ» في كل مواقعها إلا في هاتين الآيتين. هذا من حيث اللفظ.

أما من حيث المضمون، فإن المراودة الأولى هي التي تؤدي إلى المراودة الثانية عَبْرَ سلسلةٍ من الأحداث. فبسببٍ من المراودة الأولى، يدخل يوسفُ السجنَ، ويلتقي بصاحبيه في السجن، فيفسر لهما رؤياهما، فينجو الأول ويهلك الثاني. ثم الذي ينجو يقص أمره على الملك وينقل رؤيا الأخير إلى يوسف لتأويلها، فيكون تأويله لها سببًا في تمكينه وتوَلِّيه منصبَ عزيز مصر. ثم يكون بعد ذلك لقاؤه بإخوته وهو في هذا المنصب الكبير، وأَمْرُهُ إياهم أن يأتوه بأخيه، ثم تكون مراودةُ الإخوة لأبيهم تنفيذًا لهذا الأمر. ثم يشاء الله أن تفشل المراودة الأولى وتنجح الثانية ليتحقق القدر المرسوم. وهكذا تتشابك أطوار القصة، وتُنْصَبُ هذه الكلمة النادرة دليلًا ماديًّا على تشابك تلك الأطوار.

* * *

المثال الحادي عشر: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ...﴾

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 78]. تقع هاتان الآيتان في طورين مختلفين من أطوار القصة، ولكن تَتَّحِدَانِ بأواصرَ لغويَّةٍ لا توجد في القرآن إلا فيهما. فعبارة ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لا تقع في القرآن كله إلا في هذين الموضعين من قصة يوسف، رغم شيوع الكلمات التي تتألف منها، وهي في الموضعين ثناء على يوسف ﷺ. وواضح أن العبارة في الموضع الأول جاءت تمهيدًا لقدومها في الموضع الثاني، وتوطئةً لِمَا أعد الله ليوسف من حسن المآل وهو بعدُ في السجن. وكذلك تقع كلمة «أَحَد» في الآيتين لتقدِّمَ دليلًا آخَرَ على تلاحمهما المتفرد. هذا من حيث اللفظ.

11 وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 37].

12 انظر: الزمخشري، **الكشاف**، 3: 302

أما من حيث المضمون، فإننا نجد في الآيتين طلبًا موجهًا إلى يوسف. ففي الآية الأولى، يطلب منه صاحباه في السجن أن يؤوِّل لهما رؤياهما لِمَا يتوسمان فيه من الخير والصلاح. وفي الآية الثانية، يطلب منه إخوته في رحلتهم الثانية أن يطلق لهم سراح أخيهم ويأخذ أحدهم مكانه لِمَا رأوا فيه من الإحسان في رحلتهم الأولى. ويلاحظ في الآية الأولى أن الذي يشار إليه بأنه ﴿أَحَدُهُمَا﴾ ينجو، ويُصْلَبُ الآخر. كما يلاحظ في الآية الثانية أن الذي يشار إليه بقولهم: ﴿أَحَدَنَا﴾ ينجو، ويؤخذ الآخر. بهذه الدقة اللطيفة تلتقي الآيتان في المضمون كما التقتا من قبل في اللفظ.

* * *

المثال الثاني عشر: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ...﴾

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: 45]. تصور هاتان الآيتان مشهدين مختلفين، ولكن تنفردان بآصرة لغوية لا تقع إلا فيهما. فعبارة ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ لا ترد في القرآن كله إلا في سورة يوسف. تقع فيها ثلاث مرات: مرة ينطق بها السجينان في الآية [يوسف: 36]، ومرة ينطق بها يوسف في الآية [يوسف: 37]، ومرة ثالثة ينطق بها الساقي الذي نجا في الآية [يوسف: 45]. هذه المرة الثالثة تقع في سياق مختلف حيث يتذكر الساقي صاحبه يوسف الذي نسيه بعد خروجه من السجن. يتذكره حين يعجز الملأ عن تأويل رؤيا الملك، فيقول للقوم بكل ثقة: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ لأنه جرب يوسف من قبل. ولما كان هذا الساقي لا يُذكر إلا بعد مضي بضع سنين، وبعد بُعْدِ العهد به، ولا يشار إليه إلا بعبارة ﴿الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ استثارةً لخيال القارئ، يُجْري السياق على لسانه ذاتَ الكلمة التي استعملها هو وصاحبه الآخر الذي صُلِب، ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾، لتكون له رمزًا تعريفيًّا متفردًا يقطع بأنه هو نَفْسُ الرَّجُلِ الذي نجا، لا غيرُه.

* * *

المثال الثالث عشر: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ...﴾

قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67]. تقع هاتان الآيتان في موقعين متباعدين في الأرض وفي السورة، وفي زمانين مختلفين، ولكن تتميزان بأواصر لغوية ليست في غيرهما. أولًا لا تأتي كلمة «متفرِّق» كاسم فاعل للفعل الخماسي «تفَرَّقَ» إلا في هذين الموضعين من سورة يوسف، وذلك على الرغم من أن مادة «فرق» تتكرر في القرآن اثنتين وسبعين مرة، والفعل «تفرَّق» نفسه يتكرر ثماني مرات. وثانيًا لا تجتمع كلمة «واحد»، التي تتردد في القرآن بصيغتها هذه المذكرة ثلاثين مرة، بمادة «فرق» إلا في هذين الموضعين في

سورة يوسف. وثالثًا تشتمل الآية الأولى على كلمة «أرباب» والثانية على كلمة «أبواب» وهما متشابهتان في حروفهما، ومتماثلتان في صيغة الجمع، مما يجعل النطق بإحداهما يذكر بالأخرى. بهذه الخصائص اللغوية الثلاث تتلاحم الآيتان من حيث اللفظ.

أما من حيث الغرض، فإنّ الآية الأولى جزء من الحوار الذي يدعو فيه يوسف صاحبيه في السجن إلى التوحيد، ويعرض عليهما قضيته عرضًا منطقيًّا لا بد أن يقبله العقل. يقول: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. لا شك أن الله الواحد القهار الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي له الأمر كله، خيرٌ من أَرباب متفرقين ليست لهم إرادة واحدة. فهو إنما يعرض عليهم القضية بهذه الصورة مجاراةً لمعتقداتهم، لا تسليمًا بوجود أرباب متفرقين لهم فاعلية في الوجود وإن تفرقت إراداتهم. ويلاحظ أن السياق يقول: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ في مقابل ﴿الْوَاحِدُ﴾، ولا يقول: «متعددون» الذي هو المقابل المعتاد للواحد. وذلك للإشارة إلى أن التعدد قد لا يعني التفرق بالضرورة. فقد يكون الأرباب متعددين دون أن يتفرقوا. أما التفرُّق، فيفيد التفرُّق والتعدد جميعًا.

وإنَّ الآية الثانية جزء من الحوار الذي يوصي فيه يعقوبُ بَنيه في رحلتهم الثانية إلى مصر ألا يدخلوا من ﴿بَابٍ وَاحِدٍ﴾، وأن يدخلوا من ﴿أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾. فقد هجس في نفسه ما يهجس في نفس أيِّ والدٍ أنعم الله عليه بهذا العدد الكبير من الأبناء، بفتوتهم وقوتهم وحسن طلعتهم، أن تصيبهم العين إذا شوهدوا وهم يدخلون من باب واحد مجتمعين. ففكر في تدبير عملي يمكن أن يحميهم من هذا المكروه المحتمل، فأوصاهم أن يدخلوا من ﴿أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ - لا من أبواب متعددة كما هو المتوقع في مقابل ﴿بَابٍ وَاحِدٍ﴾ - لأن التفرق هو الذي يضمن لهم ألا يظهروا في مكان واحد، لا مجرد التعدد الذي يمكن أن يكون في نفس المكان. وهي الكلمة ذاتها التي استعملها يوسف وهو يتحدث عن الأرباب المتفرقين. وفي هذا الاقتراح نلمح ذات الحصافة التي رأيناها في يوسف لَمَّا استبقى أخاه بتلك الحيلة، حيلة صواع الملك. لكن يعقوب لا يلبث أن يدفع عن نفسه هذا الهاجس، ويدرك أنَّ هذا التدبير لا يُغْني عنهم من الله شيئًا، وأنَّ الأبواب المتفرقة - كالأرباب المتفرقين - لا نفع فيها، وأن الأمر كله بيد الله، وأن قضاءه هو النافذ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. بهذا التشابه المدهش في الحصافة وفي الإيمان يتصرف يوسف ويعقوب على بُعد ما بينهما من المسافة في الزمان وفي المكان، ويستعملان كلمات لا تجري على لسان أحدٍ غيرهما في القرآن كله.

يقول المستشرقون الذين يحكمون على النص القرآني من ظاهره، ولا ينفذون إلى أعماقه لإدراك مثل هذا التلاحم اللفظي والغرضي الخفي الدقيق، إن الحوار الأول الذي كان بين يوسف وبين صاحبيه في السجن - وهم يسمّونه خطبة السجن (The Prison Sermon) - مدسوس في القصة. وإنه، في نظرهم، ليس منها ولا يخدم أغراضها، وإنه يلائم واقع النبي ﷺ في مكة أكثر مما يلائم واقع يوسف في السجن.[13] وإنه دُسَّ في القصة حتى

13 Neal Robinson, *Discovering the Qur'an: A Contemporary Approach to a Veiled Text*, 2nd ed. (London: SCM Press, 2003), 157-8

يتألق النبي ﷺ من خلال قصة يوسف.[14] وقد رأينا أنَّ هذا الحوارَ أبعدُ ما يكون عن الدَّس. فليس بمقدور إنسان أن يُدْخِلَ هذا الحوار في هذه القصة، بهذه الدقة المحكمة، ويديرَ على لسان يعقوب ذات الكلمات التي دارت على لسان ابنه في موقف آخر، ثم لا يذكر تلك الكلمات في القرآن كله إلا في هذين الموقفين.

المثال الرابع عشر: ﴿رُؤْيَايَ...﴾

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: 43]. وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]. تصور هاتان الآيتان مشهدين مختلفين في موقعين متباعدين، ولكن تتلاحمان بعبارة ﴿رُؤْيَايَ﴾ التي لا ترد في القرآن كله إلا في هذين الموضعين من سورة يوسف. فكلمة «رؤيا» تتكرر في القرآن سبع مرات، ثلاث منها في يوسف، ولكنها لا تأتي مضافة إلى ياء المتكلم ﴿رُؤْيَايَ﴾ إلا في هاتين الآيتين. ولهذه الإضافة قيمة رمزية كبيرة؛ إذْ إن الإضافة الأولى التي تقع في وسط القصة تمهِّد للإضافة الثانية التي تقع في ختام القصة. فالذي يضيف الرؤيا إلى نفسه في المرة الأولى هو الملك، وفي المرة الثانية هو يوسف، ولكن بعد أن يصبح هو الملك. وتأتي عبارة ﴿رُؤْيَايَ﴾ في السياق الثاني كدليلٍ ماديٍّ على أن يوسف هو الملك الآن. ولذلك جاء في الآية التالية مباشرة قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

* * *

المثال الخامس عشر: ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ...﴾

قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 46]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: 62]. تعرض هاتان الآيتان مشهدين مختلفين ولكن تتميزان بآصرة لغوية فريدة لا تقع في القرآن كله إلا فيهما. وهذه الآصرة هي كلمة «لَعَلَّ» التي تتكرر في القرآن في مائة وثلاث وعشرين آية، وهي أداةٌ تُختم بها الآيات التي تنتهي بفاصلة الواو والنون (أُونْ) في جميع مواقعها في القرآن. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 56]. وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65]. وتأتي متصلة بكاف الخطاب ستًّا وأربعين مرة، كما في الآية الأولى أو بضمير الغَيْبة اثنتين وسبعين مرة، كما في الآية الثانية. ولا تأتي

14 "The person of Muḥammad shines through in the story of Joseph." See Hämeen-Anttila, "Best of Stories," 27

متصلة بغيرهما إلا أربع مرات بياء المتكلم، ومرةً واحدةً بضمير المتكلمين (نا). ولَمَّا كانت «لعل» أداة متعددة الأغراض تُختم بها الآيات، ولا تقع إلا في نهاية الآيات، [15] كان من النادر تكررها في الآية الواحدة نظرًا لضيق المساحة التي تقع فيها في ختام الآية.

إلا أنّ النظم القرآني يكسر هذه القاعدة العامة، قاعدة عدم تكرار «لعلَّ» مرتين في آية واحدة، فيكررها مرتين في آية واحدة في موضعين من سورة يوسف. ففي الموضع الأول، قال تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 46]. وفي الموضع الثاني، قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: 62]. إن هذا التكرار الذي لا نظير له في القرآن يربط بين طورين مختلفين من أطوار القصة. وللتوكيد على تمام التناظر بين الآيتين، ونفي أي شبهة توحي بوقوع هذا التناظر بالصدفة، يكرر النظم القرآني فعلًا آخر في الآيتين، وهو الفعل «رجع». وبهذا التناظر الفريد الذي لا نظير له في القرآن تتشابك الآيتان من حيث البناء اللفظي.

أمّا من حيث البناء المعنوي، فثمة أمر مأمول في الآيتين. فالمأمول في الآية الأولى أن يرجع الساقي إلى الناس بتعبير للرؤيا يوضح لهم مغزاها الذي عجز الملأ عن إدراكه، ذلك العجز الذي لا شك أنه خلق حالةً من التوتر والترقب والانتظار بين الناس، إنها ليست أي رؤيا. إنها رؤيا ملك. وذلك فوق ما في طبع الناس من الفضول في معرفة تفسير الرؤى. والمأمول في الحالة الثانية أن يرجع الإخوة بأخيهم بهذه الحيلة التي دبَّرها يوسف. فما من شك في أن هذه الحيلة خلقت كذلك حالة من التوتر والترقب والانتظار في البيئة التي كان فيها يوسف. وكلتا البيئتين بيئةٌ ملَكية، والترقب فيها على أعلى المستويات. إن هذا المأمول وما صاحبه من التطلع إلى ما يكشف عنه المستقبل في الحالتين هو الذي اقتضى استعمال «لعل» وتكرارها مرتين. ونلاحظ أنه في الحالة الأُولى فإن الملك وحاشيته هم الذين ينتظرون الأنباء من الساقي، وفي الحالة الثانية فإن يوسف وحاشيته هم الذين ينتظرون الأنباء من الإخوة. وهذا الذي اقتضى استعمال الفعل «رجع» في الحالتين. كما نلاحظ حضور البضاعة في الآية الثانية، وهي الحيلة التي اتخذها يوسف لاستقدام أخيه إلى مصر، وهي الحيلة نفسُها التي اتخذتها القافلة لجلبه إلى مصر. وقد ذكرنا من قبلُ أنَّ كلمةَ البضاعةِ لها رمزيةٌ عاليةٌ في القصة ولا تظهر في القرآن إلاّ فيها.

* * *

المثال السادس عشر: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا...﴾

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110]. تقع هاتان الآيتان في موقعين متباعدين،

15 لا تقع في أول الآية أو في درْجها إلا في ثلاثة مواضع: [طه: 40]، و[المؤمنون: 100]، و[القصص: 38].

وتُعَلِّقان على موقفين مختلفين، ولكن تنفردان بعبارة ﴿مَن نَّشَاءُ وَلَا﴾ التي لا تظهر في القرآن كله إلا في هذين الموضعين من سورة يوسف، مع أنها تتألف من كلمات كثيرة الشيوع.[16] فعبارة «مَن نَّشَاء» نادرة في القرآن ولا ترِد فيه إلا سبع مرات، ثلاث منها (42%) في سورة يوسف.[17] وفي المواقع الثلاثة في سورة يوسف يعود ضمير العظمة فيها على الله سبحانه. إن هذا الحضور الكثيف لهذه العبارة في هذه السورة على ندرتها يأتي متساوقًا مع الحضور الطاغي لنون الجلالة فيها، ومتساوقًا كذلك مع ضمير جماعة المتكلمين الشائع فيها، إذْ يتكلم كثير من أبطال القصة بصوت جماعي واحد، كالإخوة، والعزيز وامرأته، ونسوة المدينة، وصاحبي يوسف في السجن. أما الذي يميز هذه العبارة في هاتين الآيتين ويجعلها آصرة لغوية متفردة فهو أنها لا تأتي متبوعةً بعبارة ﴿وَلَا﴾ إلاّ في هذين الموضعين. وإنّ لهذه العبارة لشأنًا، كما سنرى. هذا من حيث البناء اللفظي.

أمّا من حيث الغرض، فإن الآية الأولى تأتي إعلانًا عن بداية مرحلة جديدة في قصة يوسف، وعن عهدٍ جديدٍ يتولى فيه يوسف مقاليد الأمور، جزاءً لاجتيازه بنجاح سلسلة من المحن والابتلاءات التي عرضت له في حياته: في الجب، ثم في بيت العزيز، ثم في السجن. إنّه اليوم ممكَّن في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء. فقد كانت الأرض كلها قيدًا عليه في ماضيه القريب والبعيد: كانت قيدًا عليه وهو في الجب. وكانت قيدًا عليه وهو رقيق في بيت العزيز. وكانت قيدًا عليه وهو في السجن. أما اليوم فهو ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾. هذه نتيجة الاختبار الطويل، ونتيجة الصبر الجميل. فقد أدركه الله برحمته: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وكذلك تأتي الآية الثانية إعلانًا عن بداية مرحلة جديدة في دعوة الرسل بعد معاناة طويلة مع أقوامهم، وبعد أن بلغ منهم اليأس مبلغه، ودفعهم إلى الشك حتى في دعوتهم نفسها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. بعد هذا الاختبار الطويل جاءهم نصر الله الذي ينجي المؤمنين ويهلك المجرمين.

ومن تمام التلاحم وكمال التنسيق بين الآيتين هذا الفرق الذي نلاحظه في ختام كلٍّ منهما. فالأولى تنتهي بقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وهي نهاية فيها وَعْدٌ بعدم إضاعة أجر المحسنين، كأنما هي تلميح بنهاية سعيدة لقصة يوسف. وهذا ما سيحدث بالفعل. فإن أبطال القصة الرئيسيين جميعًا يتوبون في نهاية القصة: إخوة يوسف وامرأة العزيز، وتنتهي القصة نهاية سعيدة، ويلتئم شمل يوسف بأهله أجمعين. والثانية تنتهي بقوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. وهي نهاية فيها وعيد للمجرمين، وذلك لأن قصص المرسلين كلها تنتهي بإهلاك المجرمين، وتنجية المؤمنين، إلا قصة يوسف فإنها تنتهي بلا عقاب ولا إهلاك. فكما تتضمن الآية الأولى بشارة بنهاية سعيدة لقصة يوسف، تتضمن الآية الثانية بشارةً بنصرٍ قريبٍ للنبي ﷺ وهو في مكة كالنصر الذي جاء الرسلَ من قبله بعد امتحان شاقٍّ وطويل. ومن هنا كان هذا اللطف في اختيار خاتمة تناسب كل آية. ولذلك قلنا آنفًا إن لعبارة ﴿وَلَا﴾ لشأنًا.

16 فالفعل «شاء» وحده يتكرر في القرآن مائتين وستًّا وثلاثين مرة.

17 وفي المقابل، نجد عبارة ﴿مَن يَشاء﴾ تتكرر في القرآن سبعين مرة.

* * *

المثال السابع عشر: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ...﴾

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68]. وقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]. تعرض هاتان الآيتان مشهدين مختلفين ولكن تتلاحمان بعبارةٍ فريدةٍ ليست في غيرهما في القرآن. وهذه العبارة هي قوله تعالى: ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذِي عِلْمٍ﴾. إن كلمة «عِلْم» التي تتكرر بهذه الصيغة الاسمية مائةً وخمس مرات في القرآن لا تقع مضافةً إلى هذا الاسم من الأسماء الخمسة «ذو» بصيغه المختلفة من الإفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتأنيث، والرفع والنصب والجر، إلا في هذين الموضعين من سورة يوسف. بهذه الخاصية المتفردة تتلاحم الآيتان من الناحية اللفظية.

أما من الناحية المعنوية، فإنّ الموصوف بقوله تعالى: ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ في الآية الأولى هو يعقوب ﷺ. وجاءت هذه الصفة تعقيبًا على حسن تدبيره حين نهى بنيه أن يدخلوا من بابٍ واحدٍ خشية أن تصيبهم العين، وهو تصرف عملي لا يصدر إلا من رجل عالم حصيف: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. والموصوف بقوله تعالى: ﴿ذِي عِلْمٍ﴾ هو يوسف ﷺ. وجاءت هذه الصفة كذلك تعقيبًا على حسن تدبيره في استبقاء أخيه، وهو كذلك تصرف عملي لا يصدر إلا من رجل عالم حصيف: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. وهكذا يلتقي الوالد والولد في هذا الاصطفاء الرباني الكريم، ولا يوصف بهذه الصفة، بهذه الصيغة، أحدٌ غيرهما في القرآن. وبهذا التناسق المتفرد تلتقي الآيتان في المعنى كما التقتا من قبل في اللفظ.

ومع هذا التناسق الباهر الذي نراه بين الآيتين في اللفظ وفي المعنى؛ ذلك التناسق الذي لا سبيل إلى الشك فيه؛ لأنه قائم على دليلٍ ماديٍّ ملموس، نجد في كلام المفسرين، من أمثال السمعاني (ت: 489هـ)، وابن عطية، وأبي حيّان، [18] وابن كثير، ما يصطدم بهذه الحقيقة. يقول ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: «وقرأ الجمهور: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عالِمٍ﴾، والمعنى أن البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بدَّ من أعلَم منه، فإما من البشر، وإمَّا الله عزَّ وجلَّ، وأمَّا على قراءة ابن مسعود فقيل: ﴿ذِي﴾، زائدة، وقيل: ﴿عالِمٍ﴾ مصدر كالباطل.» [19] انتهى كلامه. وواضح من اهتمام ابن عطية بتفسير هذه القراءة المنسوبة إلى ابن مسعود، ومن محاولته الدفاع عنها من حيث اللغة على ركّتها الظاهرة وسُقْمها البادي، ثم من عدم إنكاره لها ابتداءً، أنه يعتقد أنها قراءة صحيحة، مع أنها ليست قراءة سبعية ولا عشرية. ولكن النظم القرآني الذي يقوم على التناظر المتفرد بين الآيتين، على النحو الذي مرَّ بنا،

18 انظر: أبا حيَّان الغرناطي، **البحر المحيط**، 5: 328. سبق ذكره.

19 انظر: ابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز**، 1009. سبق ذكره.

يقطع بما لا يدع للشك مجالًا أن هذه القراءة مكذوبة على ابن مسعود، كغيرها من كثيرٍ من الروايات الباطلة التي تُنسب إليه زورًا، مما تزدحم به كتب التفسير للأسف الشديد.

ولا يقل غرابةً عن هذه الرواية ما يورده أبو المظفر منصور محمد بن عبد الجبار السمعاني، وابن كثير الدمشقي من أن ابن مسعود قرأ هذه الآية: «وفوق كلِّ عالِمٍ عليم».[20] والخطورة في هذه الرواية أنها تزعم أن ابن مسعود كان يسقط كلمات من القرآن. فقد أسقط - حسب هذه الرواية - كلمة ﴿ذِي﴾ من هذه الآية. وابن مسعود من غير شك بريء من هذه الفرية وأمثالها التي تُنسب إليه بشهادة نظم القرآن له، كما رأينا. ويبدو أن صاحب هذه الرواية أدرك أن رواية ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عالِمٍ﴾، أي وفوق كلِّ صاحبِ عالِمٍ، لا تستقيم من حيث المعنى، فألغى منها ﴿ذِي﴾ حتى تستقيم له العبارة.

* * *

المثال الثامن عشر: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا...﴾

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: 63]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110]. تقع الآية الأولى في وسط القصة، والثانية بعد نهايتها وعند التعقيب عليها، ولكن توحِّدهما كلمة «استيأس» التي لا ترِد في القرآن كله إلا فيهما. ومع أن مادة «يئس» تتكرر في القرآن ثلاث عشرة، إلا أن هذه الصيغة الصرفية، «استيأس»،[21] لا تقع إلا في هذه السورة لا لتكون آصرة لغوية فذَّةً تربط بين قصة يوسف وبين خاتمة السورة التي جاءت تعقيبًا عليها فحسب، ولكن لتقطع الطريق على افتراء المستشرقين الذين يقولون إن تلك الخاتمة ليست إلا أشتاتًا من العبارات القرآنية الجاهزة جمِّعت ورقِّعت لتكون تعقيبًا على قصة يوسف.[22] إنها تأتي لتفضح جهلهم، وتكشف حقدهم، وتقطع ألسنتهم المبسوطة بالسوء. وزيادة في كمال التناظر بين الآيتين، يأتي النظم القرآني بكلمة ﴿نَجِيًّا﴾ في الآية الأولى، وكلمة ﴿فَنُجِّيَ﴾ في الآية الثانية، وهما من جذر واحد، وبينهما مدلول مشترك في السياقين، كما سنرى.

وواضح أنّ هذا التلاحم اللفظي، يقابله تلاقٍ في الغرض. فالآية الأُولى تصور أَحْرَجَ موقفٍ وَجَدَ فيه الإخوةُ أنفسَهم في أطوار القصة كلها. فحتى هذه اللحظة كانت القصة تسير على ما يشتهون. فقد فرَّطوا في أخيهم يوسف من قبل، ثم كذَبُوا على أبيهم فمرت القصة. وجاؤوا إلى مصر يمتارون، فحققوا ما يريدون، ورجعوا ومعهم الميرة وبضاعتهم التي رُدَّتْ إليهم. واقترحوا على أبيهم أن يرسل معهم أخاهم، فتردد أول الأمر ثم أخذ

20 انظر: أبا المظفر منصور محمد بن عبد الجبار السمعاني، **تفسير القرآن**، تحقيق أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم (الرياض: دار الوطن، الطبعة الأولى، 1997)، 3: 53. وانظر: ابن كثير الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، 4: 204. سبق ذكره.

21 وكذلك لا نجد في القرآن كله صيغة «استعصم» [يوسف: 32]، وصيغة «استخلص» [يوسف: 54] إلا في سورة يوسف رغم تكرر مادتيْهما في القرآن، وهما تأتيان لتقوية تفرد صيغة «استيأس»..

22 See Hämeen-Anttila, “Best of Stories,” 10

عليهم موثقًا من الله فأرسله معهم. وكانوا يتوقعون هذه المرة كذلك أن يرجعوا إلى أبيهم ومعهم أخوهم وقد ازدادوا كيل بعير ولكن حَدَثَ لهم ما لم يكونوا يحتسبون. إنهم الآن أمام أقسى اختبار مرَّ بهم في حياتهم كلها. فالملك مصرٌّ على أخذ أخيهم، ولا يرضى به بدلًا. والمفارقة القاسية في هذا أنهم هم الذين نطقوا بهذا الحكم. فكيف يواجهون أباهم بهذه الفاجعة الجديدة؟ وبأي وجه يقابلونه؟ في هذه اللحظة اليائسة المكروبة، ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، انفردوا بأنفسهم يتناجَوْنَ ويتشاوَرُونَ للاستقرار على رأي واحد، وكأن هذا التناجي هو الذي رسم لهم طريق الخلاص والنجاة مما كانوا فيه. وعبارة ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ نفسها تومئ من بعيد بما ينتظرهم من الخلاص والنجاة في نهاية القصة بما في اللفظتين من إيحاء خفي بهذا المعنى. والآية الثانية تُصَوِّر الرسلَ في لحظة من الضيق والكرب تدفع إلى اليأس، وتثير في النفس الظنون، ثم يعقبها نصر الله، فَيُنَجَّى المؤمنون، ويُهْلَك المجرمون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

المثال التاسع عشر: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ...﴾

قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 83]. وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]. تعرض هاتان الآيتان مشهدين مختلفين، في مكانين متباعدين: فالأولى في أرض كنعان، والثانية في مصر. ولكن تتلاحمان بفاصلة لا تظهر في القرآن كله إلا فيهما، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. إن هذه العبارة تتألف من كلمات كثيرة الشيوع في القرآن. إلا أن هذا السبك، بهذا التركيب، وبهذا الترتيب، لا يقع إلا في ختام هاتين الآيتين، مما يدل على أن ختام الآيات في القرآن بصفة عامة يخضع لنظام صارم من السبك والتركيب والترتيب لا نستطيع أن نجري عليه أي تغيير. فلا نستطيع أن نقدم إحدى الصفتين على الأخرى في هذه العبارة، فضلًا عن استبدال صفة أخرى بها، كما رأينا في الفصل الخاص بسورة الأنعام.

على أنّ توحيد السبك ليس هو وحده الذي يحقق التلاحم المتفرد بين الآيتين. إن الذي ينطق بهذه العبارة في الآية الأولى هو يعقوب ﷺ حين فجعه بنوه في ابنيه يوسف وبنيامين. قالها في سياق الدعاء وهو يعبر عن رجائه في أن يجمعه الله بهما وبأخيهما الذي أَبَى أن يَبْرَحَ الأرضَ في مصر حتى يأذن له أبوه. قالها متفائلًا، وواثقًا برحمة ربه، وعلمه وحكمته. فهو يَذْكُرُ عِلْمَ الله هنا وحكمتَه لَمَّا تكررت عليه الفواجع، فأصبحت فوق إدراكه هو، فأحالها إلى العليم الحكيم. وإن الذي ينطق بها في الآية الثانية هو يوسف ﷺ حين جمع الله شمله بأبيه وأمه وإخوته. قالها في سياق الشكر بعد أن تحقق ما كان في علم الله وحكمته من الأمور الغيبية الكبرى التي يعجز عن إدراكها البشر. فالعبارة هي ذاتها في الحالتين: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. ولكنها تفيد الدعاءَ في الأولى، والشكرَ في الثانية. تفيد الرجاءَ في الأولى، وتَحَقُّقَ ذلك الرجاءِ في الثانية. تفيد الغيبَ في الأولى،

والشهادةَ في الثانية. ويأتي توحيد العبارة لتؤدِّيَ هذه المعاني جميعًا، ولِتَقُومَ دليلًا على أن هذا الشكرَ هو حصيلةُ ذلك الدعاء.

* * *

المثال العشرون: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي...﴾

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]. تقع هاتان الآيتان على أبعد مسافة بين آيتين عَرَضْنَا لتحليلهما في هذه السورة. فالأولى تقع في بداية قصة يوسف، والثانية عند نهاية سورة يوسف، ولكن يجمع بينهما تركيبٌ لُغَوِيٌّ لا يقع إلا فيهما، وهو عبارةُ ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي﴾. إنّ هذا التركيب يتكون من ثلاث كلمات كثيرة الشيوع والدوران في القرآن. فكلمة ﴿لَّقَدْ﴾ تتكرر في القرآن مائةً وإحدى وتسعين مرة، وكلمة ﴿كَانَ﴾ ستَّمائةٍ وتسعًا وثمانين مرة، وكلمة ﴿فِي﴾ ألفًا وخمسَمائةٍ وستَّ عشرةَ مرة. ورغم هذه الكثرة الهائلة لهذه الكلمات، فإن عبارة ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي﴾ المؤلفة منها لا تظهر في القرآن كله إلا في هذين الموقعين من سورة يوسف، وذلك للربط بين قصة يوسف، وبين ختام سورة يوسف بهذه الآصرة اللغوية المتفردة، ولِقَطْعِ الطريق على الذين يشككون في أن تكون الآيات التسع الأخيرة جزءًا أصيلًا من سورة يوسف، والذين يقولون إنها أشتاتٌ من العبارات القرآنية الجاهزة ضُمَّ بعضها إلى بعض لتكون تعقيبًا على القصة وخاتمةً للسورة. إنه لا يستطيع بشر، مهما بلغ من القوة والذكاء، ومهما استعان بأي تطبيق تكنولوجي متقدم، أنْ يأتيَ بعبارة فريدة تتكون من كلماتٍ بهذه الكثرة وهذا الدوران في القرآن، ثم يختارَ لها هذين الموقعين الاستراتيجيين، بدايةَ القصةِ ونهايةَ السورة، ثم لا يكرِّرَها في أي مكان آخر في القرآن. لا يستطيع هذا بشر في كتاب بحجم القرآن.

فإلى جانب هذا التطابق اللغوي المتفرد بين الآيتين، نلحظ أن المتكلم فيهما هو الله سبحانه. ونلحظ كذلك أن عبارة ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ تشير إلى ما سيقع في المستقبل؛ لأننا بعدُ في أول القصة. فهي تهيِّئُنا لما هو آتٍ في القصة. وأما عبارة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فتشير إلى ما مضى من القصة، وتحثنا على استخلاص العبرة من قصص المرسلين عامة، ومن قصة يوسف التي فرغنا من قراءتها للتو خاصة. ومرة أخرى نرى أن العبارة الواحدة، ذات التركيب الواحد: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي﴾ تفيد معنيين مختلفين. إنّ التركيب في وضعه اللغوي يفيد الْمُضيَّ، ولكن السياق الذي يوضع فيه يجعله قابلًا لإعطاء معنى الاستقبال. وهذا شبيه بما مرَّ بنا في الفقرة السابقةَ من فاصلة الآية التي تفيد الدعاءَ في سياق، والشكرَ في سياق آخر. بمثل هذه الدقة في اختيار الألفاظ، وبمثل هذا الإحكام في بناء التراكيب اللغوية يتوافق أول القصة مع ختامها، وبهذا تنتهي القصة التي وصفها الله في كتابه بأنها أحسن القصص.

نكتفي بهذه الأمثلة من سورة يوسف، ولم نأتِ على كل ما فيها من أمثلة التلاحم اللغوي، والتناسق الفني، والتلاقي الغرضي. فذاك أمر يحتاج أن يُفرد له كتابٌ مستقل. وحسبنا هنا أن نقول كلمة نختم بها هذا الفصل.

خاتمة

لقد تبين لنا من هذا التحليل أنّ النظم القرآني لا يتخلى عن طريقته في تنظيم السورة، طريقة تلاحم البناء اللغوي، حتى في سورة يوسف الغنية عن هذه الطريقة بحكم بنائها القصصي المتفرد الذي تقع فيه الأحداث بترتيبٍ زمنيٍّ متسلسلٍ واضحٍ يبدأ بالرؤيا وينتهي بتأويلها. إنّ استعمال النظم القرآني لهذه الطريقة في هذه السورة الخاصة لدليل قاطعٍ على أن هذه الطريقة ظاهرة كونية مطَّردة في القرآن، وهذا ما أردنا إثباته من إنشائنا لهذا الفصل.

وهذه الظاهرة الكونية في القرآن وراءها تنظيم محكم ينسِّق بين الأحداث وبين الألفاظ المستعملة للتعبير عنها. ففي سورة يوسف تُوَزَّع الكلمات والتراكيب على الأبطال كما تُوَزَّع عليهم الأدوار، فتستعار عناصر لغوية استعملت للتعبير عن موقفٍ سابقٍ في القصة لتعبر عن موقف آخر لاحقٍ على ما بين الموقِفَيْنِ من تباين في الزمان وفي المكان. إن المعجز في مثل هذه الاستعارة أن الأحداث تقع في مجراها الطبيعي للقصة ولا تُفْتَعَلُ افتعالًا حتى تُركَّبَ عليها تلك العناصر المستعارة. وقد مرَّت بنا نماذج كثيرة من هذا في سورة يوسف وفي الفصول السابقة من هذا الكتاب.

ولعل أبرز مثال لهذا في قصة يوسف هو فكرة استعمال الحيلة التي تتكرر في القصة لنقل الأحداث من طَوْرٍ إلى آخر، ولتكثيف العقدة، ثم حلها في النهاية. فالإخوة يستعملون حيلة المتاع لتبرير اختفاء أخيهم يوسف. وكذلك يوسف يستعمل الحيلة نفسها لاستبقاء أخيه في مصر. والقافلة تستعمل حيلة البضاعة لتهريب يوسف وبيعه في مصر. وكذلك يوسف يستعمل الحيلةَ نفسَها لجلب أخيه إلى مصر. وامرأة العزيز تستعمل حيلة المراودة لإغواء يوسف. وكذلك الإخوة يستعملون الحيلة نفسَها لإقناع أبيهم أن يرسل معهم أخاهم إلى مصر.

إنَّ جريانَ فكرةٍ رئيسيةٍ مَّا في القصة من الأمور المألوفة في الكتابات القصصية، ولكن المعجز في النظم القرآني هو أنه يصمِّم التعبير عنها في المواقف المختلفة بطريقةٍ فذَّةٍ لا نظير لها في القرآن. فكلمة «متاع» التي تتكرر في القرآن خمسًا وثلاثين مرة، لا تأتي مضافةً إلى ضمير المتكلمين (نا)، ومقرونةً بكلمة «عند» التي تتكرر مائةً وخمسًا وثمانين مرة، إلا في موضعين في سورة يوسف على بُعد ما بينهما. وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا**﴾ [يوسف: 17]، وقوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ**﴾ [يوسف: 79]. ويقال مثل ذلك في كل الأمثلة التي مرَّت بنا.

وتبرز بنفس القدر من الأهمية فكرة تمهيد الأحداث السابقة للأحداث اللاحقة في السورة، وهي كذلك ظاهرة ملحوظة في القرآن. فلم يكن كيد الإخوة ليوسف إلا تمهيدًا لكيد النسوة له في بيت العزيز، ثم لكيد الله له لاستبقاء أخيه في مصر. ولم يكن إلقاؤه في الجب إلا تمهيدًا لإلقائه في السجن. ولم يكن استباق الإخوة (أو ادعاؤهم للاستباق) إلا إيذانًا بالاستباق الذي سيكون بين يوسف وامرأة العزيز. ولم تكن مراودة امرأة

العزيز ليوسف إلا توطئةً لما سيكون من مراودة الإخوة لأبيهم. ولم يكن إخفاء يوسف كبضاعة إلا مقدمةً لإخفاء يوسف بضاعةَ إخوتِه في رحلهم. إن المعجز في هذا التمهيد هو أنه دائمًا مقرون بتمهيدٍ لفظيٍّ متفرد.

وفي المجال الكوني الكبير، لم يكن اضطهادُ حكام مصر ليوسف وإلقاؤهم له في السجن، إلا تمهيدًا لما سيقع بعد قرون من اضطهاد فرعون لبني إسرائيل. ولم يكَن خروج يوسف من السجن ووراثته الأرض، إلا إشارةً إلى ما سيكون من تحرُّرِ بني إسرائيل من فرعون وملئه ووراثتهم الأرض من بعدهم. كما لم يكن خروج يوسف من أرض كنعان إلى مصر، ثم سَجْنُه، ثم خروجُه منه، ثم تبوؤُه للأرض إلا بشارةً للنبي ﷺ أنه سيخرج من مكة إلى المدينة، ثم يحاربه قومه في الأرض الجديدة، ثم ينتصر عليهم في نهاية المطاف، ويورثه الله الأرض من بعدهم.

وهكذا نرى قصة يوسف قصةً كونيةً كثيرةَ الأبعاد تمثِّل تاريخ الرسالات، كما تمثِّل قصة الحياة الإنسانية على وجه الأرض. إن أكثر أحداث الحياة تتبدَّى لنا في صورةٍ غيرِ الصورةِ التي تنتهي إليها. تتبدَّى في صورةِ شرٍّ محضٍ ثم تنتهي إلى خيرٍ محض. وتكون المحن والابتلاءات هي المصهر الذي تصفو فيه النفس لتكون أهلًا لما ينتظرها من فضل الله. وإنَّ الصبر والتقوى هما الركنان الأساسيان لتجاوز مرحلة الصهر: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: 90].

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث